٥ - رحلة إلى ديار الروم

للسيد مصطفى البكرى الصديقى

للأستاذ سامح الخالدى

في الطريق الى القاهرة :

وبعد الشمس قطعنا الصخور وبان بان الجفا والشرور ، ولم نزل نقطع بحيرة ، وقرية قرية ما بها طيرة ، إلى أن وصلنا باسماف اللطيف الخبير، إلى محل بالإمداد مطير ، كاد لولا المونة والتبشير ، تحصيل الانقلاب فى الطيار الكبير ، ورجفت القلوب واتسع رتق الخطوب ، وكان الليل دهم وزاد الهم ولم نم إلا اليسير، لغلبة وارد ، وهم مبير ، وخرجنا فى الصباح المنير للبر المبر بأهله ، وانتظرنا الماش، ولحقناه فى قياسة ، بانتعاش، وطاب معنا الريح المريح ، إلى أن وصلنا إلى (مونسه) وبتنا بها بليلة مؤنسه ، وزرنا من حولها من سادات وأعيان ، ثم إنا خرجنا إلى البر تروح النفس بمشاهدة ملك البر وأردنا أن نسير على ظهور الخير، نحو (بولاق) لعظم اشتياق ، فرأينا المركوب لا يركب ، فعدنا إلى المركب ، ثم سرنا إلى أن سامتنا (وردان) الساحية بمارها على غيرها ذيل الخيرات وزرنا رجالها السبعة الفائقين على النجوم السيارة والميزان . ثم خرجنا إلى (بحر التضامى) وحزت بزورته يرا مراعى، ثم وقبل أن وصلنا (بحر الخمسين) قرأنا الفاتحة لسيدى إبراهيم ساكن الجيز ومن حوله من سادات له على الغير مبز، ولما وصلنا المجر ، خرجنا ثانيا إلى البر، وسرنا وقد طاب المسير، إلى القاهرة ذات الوجه المنير ، وبهجوم الليل واختلاف الميل حولت الماشات إلى ناحية البر، ولقد لهم حسن المقام والمقر ، وبتنا فيه والبسط يصافحنا فتسامر مع الإخوان ، ما يكون وما كان، وعلت أصوات الملاحين، بالنغمات المصرية والتلاحين، وغنى محمد الدفة مواليا فى المديح النبوى له حقه فاستمدناه وكتبناه وهو :

خذنى معك يادليل الركب يامنصور ... أزور قبر النهامى فج منه النور

قال الدليل ياصبى تقدر تدوس الدور ... قلت عيان زى يجبر المكسور

وغنى فقال :

للقرص صاحب الشيبه كتم مابح ... نايم حبيبو على فخذه وهو مرتاح

نزلت دموعو فقال لو ليش تبكى ارتاح

قال لو قرصنى الحنش فى العقب يامصباح

قال النبى للحنش لم صبت صديق ... ذا مؤنسي فى ظلام الليل ورفيق

نطق الحنش للنبى بلسان تحقيق ... قال لو أنيت الزيارة وام تعويق

« ثم إنا لما أشرقت الغزالة، على وجه أخت الخالة، سرنا باللبان إلى أن أتينا بطن البقرة ، فاستمدنا بالله من هوله متوسلين بسورة البقرة

في بولاق ، وقصور الامراء والمجاورين فى الأزهر :

« ولم ندخل بولاق إلا بعيد العشا ، وعلينا ضوء القمر مد رفشى، وما استقر بنا المقام غب الوصول للمقر المكين، حتى ورد علينا إخوان من المجاورين منهم الشيخ أحمد الأشبولى الزين ، وإسماعيل افندى وغيرهما من محبين ، وسرنا معهم (لتكية الأعجام) وبتنا آمنين بحفظ مكين، وفى الصباح وفد الأخ المداوى الشيخ محمد الحفناوى ، ومعه أحباب لهم لحبل الود انتساب ، ودخلنا ونحن فى سرور المديد ، وزرنا الجناب العالى مقام السيد السند الأوحد الحسين ، ونزلنا (وكالة محسن الجديدة)

فبعث بأخيه وابنه إلى أهل العراق الثائرين يعرض عليهم شروطا للصلح تقوم على عزل الحجاج عن العراق وتولية ابن الأشعث مكانه فرفض الثوار شروط الصلح رفضا باتا ، فأخذ الحجاج يقاتل الثوار برغم ما تركته محاولة عبدالملك الصلح مع الثوار فى نفسه من الألم

جرت بين الفريقين حروب كثيرة ومعارك حامية الوطيس فى دير الجماجم بالقرب من الكوفة كانت نتيجتها انهزام جيش ابن الأشعث ففر ابن الأشعث إلى بلاد رتبيل فدخلها لاجئا وعاد الحجاج إلى ما كان له من سلطان فى العراق

وكان من أمر ابن الأشعث أن قبض عليه رتبيل وقتله وقبض على أهل بيته وأرسلهم مع رأس عبد الرحمن إلى الحجاج كسبا لرضائه

محمد الحسينى

وبتنا بها ليلة الأربعاء ثم بتنا ليلة الخميس بسطواف وذهبنا بحتها الديماس، مع إخوان لهم طيب أنفاس، ورد فيه علينا أحباب أجله، من كل واله ومدله، وفيه أخذ الطريق واندرج في سلك أهل هذا الفريق، الشيخ أحمد المقدم، والسيد نجم الدين الخيري(١) الأقدم، والسيد حسين المحلي (٢) القدسي، والشيخ محمد المغربي محتسبين الكأس الأنسي، ثم أخذ الشيخ أحمد الشرباوي. ثم إنا بتنا ليلة الجمعة ذات الإشراف واللمعة، وكاد أن يمنعنا السحاب، من الخروج إلى صلاة الجمعة، بجمع الأحباب، ثم إنا صلينا في جامع قريب من المحل، يعرف (بالجامع الجمالي) وفي عشية يوم السبت المطار أخذ الأخ الشيخ محمد الزهار، وغيره من الأخيار، وفي يوم الأحد أخذ الشيخ أحمد العروسي، ثم حضر الأخ الشيخ محمد الحفناوي؛ وسرنا معه إلى زيارة السيدة نفيسة ذات الكأس المداوي، ومعنا جماعة لكل خير جماعة، ممن أخذ الطريق، وغيرهم من محب هذا الفريق، ولما خرجنا من باب النصر، دخل وارد السرور القلب وحل ذلك القصر، وما زلنا كلما مررنا على مرقد ولي ولي، نبسط كف الطلب ونترجى فيض العلي، إلى أن حاذينا (قلعة الجبل) وحكمنا أنها تقرب من القدس النافية الخبل، وما زلنا نتفرج ونتدرج ونقرأ الفواتح إلى أن وصلنا دوح روضة حضرة السيدة النفيسة، الدينة نفيسة، وكنت امتدحت جنابها لأشواق رسيسة، وأثبته في (الخلة النصرية في الرحلة المصرية)

« وعطفنا على زيارات كثيرة، وأحباب أقدارها كبيرة، وعجبنا على حانة أرباب الصدق والتصديق، من أسلافنا بني الصديق، وجلسنا عندهم حصة يسيرة، لتمسي بهم الأمور المسيرة يسيرة، وزرت في هذه الكرة المنيرة العم المرحوم أحمد افندي

استمرار الشيخ في نشر طريقته في مصر

« ثم أكرمنا على زيارة الأعلام ومنهم أشهب بن عبد العزيز العامري المصري، وسيدي عبد الرحمن بن القاسم ومنهم إصبغ ابن الفرج، وأبو جعفر أحمد بن محمد بن سلمة الأزدي المصري الطحاوي، ومنهم أبو بكر أحمد الدقاق، وإسماعيل المزني والشيخ شاهين والشبوحي وغيرهم، ومنهم سيدي عمر بن الفارض، وزرنا الجلال المحلي، وكان يوم مولده الذي ما مر من عيش به يحلى، وزرنا الجلال السيوطي، وسيدي إبراهيم الجعبري، وابن رفاعة، من فيضه فيض بني رفاعة، وعدنا للأماكن

« وكان الشيخ يوسف الحفني (أخو الشيخ الأمجد الشيخ محمد) جاءني بقصيدة فريدة وعدته بإثباتها في هذه الرحلة، وجعلت جائزتها الإجازة بما أجازني به كل رحلة، ومطلعها :

(سرائر سر السر بالحال تعرب وداعي التجلي بالمدائح يطنب)

وأما الإجازة التي جعلتها الجائزة المفيدة الخ فصورتها :

(لربي حمدي ماله أتقرب وشكري ما منه أخاف وأرهب الخ)

« ثم أخذ طريق الأخيار الشيخ علي شقيق الشيخ محمد الزهار، والشيخ موسى والد العروسي، وإسماعيل افندي، والسيد حسن نجل السيد محمد الفشفشي، وتقدم الشيخ حسن اليمني وطلب الإجازة لفاضل نبيل اسمـــه الشيخ إسماعيل بن غنيم فأجزناه ثم التحق بالطريق

« وفي يوم الاثنين دعانا محب زين، يدعى أحمد افندي، فقصدنا زيارة سيدنا ومولانا الحسين

« وبعد تمام الزيارة، ودعته وأودعت قلبي لديه، فتلقانا جناب العارف بربه الشيخ أحمد الدلوي، وأخبر أنه كان مقصده الاجتماع، ثم بعد السلام والمصافحة، قرأنا الفاتحة، ودعا بدعوات الأطياب، فسررت بدعائه ورأيت عليه أبهة الصالحين، أهل القرب الفالحين، وحمدت على هذا التقارب الصالحين

« وتطلبت النفس الاجتماع، جناب الشيخ محمد الميداني فعرض له بعض الحوائج، بالجمعية بالفقير، فقال لجمعية في عدم الظهور سيما في هذا الزمان الغادر الوائي، وحصل الاجتماع في الباطن فقبلنا هذا الاجتماع الموروث انتماشي

« وفي يوم الثلاثاء دعانا لداره المحـ المتين الحاج علي بن المرحوم الحاج فخر الدين، وفي ليلة الأربعاء دعانا أولاد العالم العلامة الشيخ عبد الرؤوف البشبيشي، وهما الشيخ محمد والشيخ علي

---

(١) مفتي الحنفية بالقدس توفي سنة (١١٧٣ هـ)

(٢) ترجمه حسن بن عبد اللطيف الحسيني في كتابه « أعيان القدس في القرن الثاني عشر » قام مقام شيخ السجادة البكرية بمصر توفي بالاستانة سنة (١١٩٦ هـ)

في الجامع الأزهر :

« وزرنا الجامع الأزهر ، وصعدنا الرواق الشامى الأبهر ، ودعونا للساعى فى عمارته بنيل العمار فى دنياه وآخرته

وذهبنا بعد أكل ضيافتهما لحمام صديقنا الحاج محمد الحب الأوحد ، وزارنى فى محل قرارى ، جناب الشيخ عبد الله الشبراوى وطلب الإجازة والدعا لولده الشيخ عامر ، وأخبرت أن صديقنا الأقدم ذى المقام الإحاطى ، الشيخ أحمد الإسقاطى ، شرف المحل يوم توجهنا للزيارة فلم يقسم نصيب بالاجتماع لسوء الحظ

« وقد ورد علينا جمع من المجاورين ، وأخذ كل منهم الطريق لفرط حب متين ، وغيرهم من أحباب رعا يبلغ عددهم الأسنى عد الأسماء الحسنى ، أو يتوف على عدها ويزيد

الطريق البرى الى القدس صحبة الوزير المشير عثمان باشا

« وكنا أكربنا مع الحاج خليل العريشى صحبة الوزير المشير عثمان باشا (٣) لفصل التيسير ، وتوجهنا بعد ظهر الخميس ، الرابع عشر من شعبان المبارك التأسيس ، وودعنا الإخوان منهم داخل البلد ومنهم خارجها لفرط حب مصان ، وبتنا لدى (بركة جامع العرب) منفردين . ولما صاح النفير من طرف الوزير ، تأهبنا للمسير ، وسرنا غب صلاة الصبح يسير إلى (الخانكة) بوجد منير ، وبتنا فيها ، ثم إنا سرنا إلى (بلبيس) فقلت :

ثم سرنا إلى فنا بلبيس تتهادى تخراً كامرئ قيس
وتلاقيت بالصديق الأنيس ذا خليل مفتى حمى التقديس
ثم زرنا (النوادى) خير نفيس وبها بت مثل نوم عروس

وتأخر بعض الخدم عن أمر يلزم ، فقلت نجاك الله من شره ولا نجاك من بره ، وأغرقك فى طمطام فضله ، وأمرفك من خزام وصله دون فصله

ورحلنا بهمة للقرين أترجى إسلام شر قرين

وإلى صالحية قد سرينا وأقمنا يوما لراحة عين
وقرأنا للحاجرى قبل نأتى حانها فاتحات أبواب زين

نخيل الصالحية

« وفى الصالحية من النخيل ، ما يحيل العقل البخيل أن يضاهيه ، مثيل لكن به نخيل ، عند ذوى الأعراق ، أنه يقارب كثرة سواد العراق ، وفيها طائفة الصوالحة ، التى نفوسهم للتأديب غير صالحة ، وأخرى تدعى القصاصة ، المؤرقة للمارة الفضاضة الغصاصة ، والعجب من حكام ، ما لها فى معرفة التدبير أحكام ، ولا سعى ورعى فى تأمين البلاد ، وتسكين متحرك غض الشر المياد ، ولا عدل فى الأمور ، بل عدل عنه إلى جور يجور ، ونرجو من المنان الغفور الحنان الشكور ، أن يسهل حزن هذه الصخور ، بمحو أهل الضلال والفجور ، وأن ينظم شمل العدل فى الأحكام الموفور النور ، على يد المؤيد المظفر المنصور من السلام ، المعيد لوطنه الإسلام ، سفاح الأموال ودماء أهل الاحتلال ، من ربقة الدين بانتحال

صحبة القناطر الى بئر العبد :

« ومنها توجهنا بوجه ناضر لنحو القناطر

ويحب الحبيب وجداً تخاطر وتخوض المياه أزعج خاطر
وتوسلت فى سبا ثم فاطر أن تجوز الربا بشم العواطر
ثم جئنا بئر الدويدار نسمى باجتهاد وللأوامر ندعى
وأتينا قطية وقطين ؟ ونزلنا الأولى بجد لنرعى

ثم قطعنا تلالا رملية ، لا تخرج فى الأشكال الرملية ، وأتينا (بير العبد) الآبق بفرط ملوحته ، عن منزل حلاوته وعذوبته ، إذ الأصل فى المياه الجارية ذلك ، فمن تغرب عن وطنه فهو طريق الإباقة سالك

« ولما وصلنا المحطة ، وقلنا لدى بابها حطه ، بكت عيون السحاب من غير انسكاب

صحبة البريقات الى خان يونس :

« ومنها سرنا إلى « البريقات » عندما لاحت البريقات »

(٣) لعله عثمان باشا أبو طوق كان والياً للشام سنة (١١٧٧هـ)

وفاحت أطياب الأوقات من غير ميعاد وميقات ، حتى أتينا بعد ما سرينا (لعربش) والجناح منا بالوجد مريش ، ثم (الدعقة) الوحشة الرقمة والدعقة ، ومنها إلى (خان يونس) للوارد يونس وقلت فيه لشرب صافيه . مواليا

لما أتينا لخان عمره يونس ... بالأنس فزنا لأنو للغريب يونس
عوذته برآة هود مع يونس ... من شر قوم لئام ما بهم مونس

في غزة :

« ولما بلغ خبر قدومنا صديقنا الرئيس ، محمد بن المرحوم الرئيس محمد الخليلي ، ووالده صديق محمود ، ورفيق رفيق ودود ، فتلقانا ولديه أزل وفي الإكرام أجزل ، وكذلك صديقنا الحاج محمد مكي (٤) ذو الود الزكي المكي ، وأولاده وأولاد ولده الذكي محمد جلبي ، وأرسل الأخ الممنوح انصياعا الشيخ إبراهيم بن صفر أغا بعد اجتماعه بنا هدية توجب ثبوت ما بنا وأصحبها ببيتين . (يقول له فيهما إنه لو كان لا يهديه إلى أن يرى شيئا على قدره ، لكان واجب أن يهديه سدرة المنتهى بأنوارها الخضر)

« وصليت الجمعة في جامعها القديم الجامع ، فرأيته يحتاج لعمارة ، كالبلدة التي برها المبرات جامع ، وبحرها بالمسرات هامع ، وهواها المدى لمرفها الندى لامع بكل حسن به القلب طامع ، وماؤها العذب السلسال ، يشفي العليل ويطفي الغليل من محب غير سسال

نحو الرملة وإلى القدس

وفي ليلة السبت الأول من شهر رمضان المعظم توجهنا نحو الرملة والرئيس معنا ، وبتنا في فتوح مايه سدود لدى (قرية) سدود وزرنا سيدي سلمان الفارسي والمتبولي ، وعند الوصول إلى الرملة بتنا لدى مفتيها الخيري (السيد محمد) وفي ثالث يوم من شهر الصوم من يوم الاثنين أتينا الديار المقدسة فرحين بملاقاة قرة العين ، ودخلناها قرب الغروب بقلب طروب . فلما دخلنا الباب أخبرت أن ابنتي علما متعرضة عن ألم رجلها ، وبعد السلام عليها والتحلي بمحاسن لديها ، قالت لي : « يا أبتي قد تعوقت على » فقلت « يا بنية الأمر في هذا ليس إلي » ثم عرجت في الشيخ نور الدين وقالت : « تسلم أنت يا أبتي فيه » فقلت : « وأنت تسلمي بجاه مصطفيه » وما زال مرضها الحزني يزيد ويمتد إلى ليلة الأحد ، التاسعة من شهر رمضان وفي سحرها الهنان بالأحزان سلمتها في يد جدها العتيق : وترجمتها في كراسة لما سقتني من الشراب الحمى كأسه ، وسميتها (النيوب الناجمة والغيوث المسجمة ، في ترجمة ابنتي المليحة قدرا سما ، الشريفة الصديقية البكرية علما) وذكرت رحلتها عنا في (الكلمة المرحبية الندسية في المقامة الأنسية القدسية) . وكنت لما ورد هذا الوارد على أشغل القلب وأشعل اللب ، وحرك ساكن ما لدى فلم أتم هذه الرحلة إذ ذاك بل أخرته إلى هذا الشهر الشوالي

« وكان أرسل الأخ الأمجد محمد الحفني المفرد لنا كتابا مصدرا بقصيدة صحبة الأخ الشيخ محمد المغربي ، فهب القفل وضاع الكتاب الفريد ، ولكنه أنشد لي أبياتا منها قصيد. فأجبته حالاً وكان ذلك ضحوة الأحد التاسع عشر من ذي القعدة سنة (١١٤٨هـ)

« ولما كنا في المنازل الكنانية وعد الأخ الشيخ محمد بزيارة الأماكن المقدسة ، قدم علينا في منتصف جمادى الثاني وصحب معه جملا من الهدايا منها الواهب لأخيه الداني ، فرأيت فيها ما ذكرته

« وكنت أرسلت له القصيدة السابقة من غير كتاب ، فلما توجه صديقنا السيد الكردي ، صحبته بكتاب إلى الأخ محمد الحفني قلت له فيه : إن الشيخ محمد المغربي كان ورد علينا شكيا من نفسه ، وكان أضاع بعض أمتعته نهبا ، وأخذ خرجه الحاوي على القصيدة ، وأنشدنا بعض أبيات ، وقد حذونا أثركم وأرسلناها لكم ، ونهدي أخاكم الأكرم السلام ، وجميع من لديكم من إخوان

« وأوصلت لجناب وزير الشام سليمان باشا (المعظم) إلى دمشق ، كتابا في أواخر شوال ، وصدرته بأبيات حسان

---

(٤) من عائلة غزية ، كان حسين باشا بن مكي والياً للشام سنة (١١٥٥هـ)

وقد جاء فى كتابه ، بعد السلام والدعوات ، بالحج المبرور

« أنه لما ورد العبد الديار الرومية رأى عموم أهل نامية ، والقلوب وجلة سامية ، من السفر العجمى حامية ، متواقرة الأشجان ، وعن حصول السلوك المطلوب على الوجه المرغوب ، صدر الإذن بالتوجه للقدس بعد الاستخارة ، وعانيا فى البحر المالح تيسيرا ، وأقمنا فى الكنانة ، وعدنا إلى القدس »

« وبعد عودة جنابه من الحج وأداء نسك الحج والبيت ، أرسلت كتابا مهنئا بالسلامة ، وحصول الكرامة ، فى منتصف صفر المبارك . كما أرسلت لحبنا الأمجد محمد جلبي بن مكى المفرد ، كتابا أهنئه بعوده للحمى ، كما أرسلت للصهر الجليل الشيخ إسماعيل النبيل كتابا ، وآخر سبق أضربت عن ذكره فقد من سبق »

الزيارة العليلية السنوية :

« ولما توجهت إلى الزيارة العليلية (مقام سيدى على بن عليل العمرى) فى أوائل صفر المبارك ، وجرى على اللسان مدح سيدى (يامين) وكذلك من بجواره صاحب الإفاقة (سيدى سراقة)

« ولما حللت نابلس المحروسة نزلت فى (الدرويشية) (٥) على جارى العادة جرى على الخاطر أول موشح لشيخنا الشيخ عبد الغنى (النابلسى) :

(دع جمال الوجه يظهر لا تغطى يا حبيبى
كل شئ عقد جوهر حلية الحبس المهيب

فقلت مرتجلا :

أيها الصب المخبر نسبا بنت العريب
غب بها فى الحب والأسكر كاتم السر الغريب

« وأرسل مفتى السادة الحنفية ، داخل رملة فلسطين السيد محمد الخيرى ، كتابا مصدراً بقصيدة مطلعها :

أشمس أفق بدت فى دورة الحمل أم ومض برق تلاه صيب الحمل

وكتبت جوابا عنها ليلة وصولها قصيدة على وزنها :

سربى لسربى عنى أسق من العلل
وانعم بشربى ليشفى القلب من علل الخ

وأتبعها (أى المفتى) بديباجة إذ قامت فى نفس يعقوب السر حاجة فقضاها ، وفاز بمقتضاها ، وكان أرسل مع ولده الكبير ، ولده الوسط والصغير ، وأمرهما بالانتساب ، وبعده طلب الوسط بهاء الدين (الخيرى) وصية على ظهر كتاب الأوراد فكتبت له :

« وقبل أيام ورد كتاب من المحب الأخ الحفنى ، يقول فيه : إنا عزمنا على التوجه لحرم أمنكم محبة الأخوين المتوجهين إليكم فعاقت الأقدار عن اللحوق بهما من الطريقين ، وإن شاء الله نلحق بهما فى منتصف ربيع الأول

« وكان قدومه منتصف جمادى الثانى (سنة ١١٤٩ هـ) وأقام لدينا مصحوبا بالظفر والتهانى إلى شوال المبارك وتوجه لوطنه

« وتحركت بعده منا الهمة إلى الحجة الموعود بها الفؤاد ، عقبه بثلاثة أشهر حيث الإذن وقع ، والشوق زاد ، وشرعت فى الرحلة لتلك البلاد سحر يوم الاثنين الثالث من صفر المبارك الوصف والعين ، وفى هذا التاريخ شرعنا فى الرحلة الثالثة المصرية والحجازية . والشامية ذات الإمدادات النصرية الإنجازية . والحمد لله

« تمت الرحلة »

سامح الخالدى

---

(٥) نسبة إلى درويش باشا . كان والياً لأيالة دمشق وعمر فيها جامعا . توفى ٩٨٧هـ وتولى درويش باشا آخر ولاية الشام سنة (١٠٤٥هـ)

تاريخ الأدب العربى

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر ، بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، واختيار موفق ، ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع اثنتى عشرة مرة فى ٥٢٥ صفحة
وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد